رأي القدس

لعنة العراق تطيح ببلير اخيراً

■ يبدو ان «لعنة العراق» قد أوشكت على الاطاحة بتوني بلير رئيس وزراء بريطانيا، وآخر حلفاء الرئيس الامريكي جورج بوش، واكثرهم حماساً لحروبه وسياساته الخارجية، فقد اعلن امس مضطراً، وبسبب ضغوط نواب حزبه الحاكم، عزمه الاستقالة من منصبه في غضون عام من الآن، وان مؤتمر حزب العمال الذي سيعقد بعد اسبوعين سيكون آخر مؤتمر يشارك فيه كزعيم للحزب. وقد حاول بلير ان يتجنب كل المطالبات التي تطالبه بالاستقالة فوراً، ومغادرة المسرح السياسي بطريقة كريمة، بما يفسح المجال لخليفته المحتمل غوردون براون وزير المالية، لكي يقود الحزب، ويغير السياسات التي اضعفته، ومزقت صفوفه، بما يعدل حظوظه في استطلاعات الرأي، ولكن اوساط حزبه رفضت هذه المماطلات، لما يمكن ان تلحقه من اضرار على الحزب الحاكم ووحدته الداخلية.

محنة بلير لن تتوقف بتحديد موعد مغادرته، اي بعد عام من الآن، لأن هناك من يرى من دهاقنة الحزب، ان وجوده بات عبئا ثقيلا، وان رحيله المبكر يمكن ان يقلص الخسائر، ويضع حداً للانقسامات الخطيرة وعمليات الفساد التي يعاني منها الحزب الحاكم.

لم تساعد الاوضاع المتدهورة في افغانستان والعراق، حيث توجد اعداد كبيرة من القوات البريطانية، رئيس الوزراء البريطاني في انهاء حياته السياسية بشكل مريح، فلا يمر يوم دون مقتل او اصابة عدد من الجنود البريطانيين، الأمر الذي اثار غضب اسر هؤلاء الجنود، وجعلهم يكثفون اتهاماتهم لرئيس وزرائهم وسياساته بالفشل، وتحميله مسؤولية ازهاق ارواح هؤلاء طمعا في دخول بوابة التاريخ كشخصية عالمية كبرى.

توني بلير ارتكب خطأً قاتلا بالتصاقه بالرئيس بوش، وتأييده لحروبه في الشرق الاوسط من موقع التابع وليس الشريك، فعرّض حياته السياسية، ومصالح بلاده في الوقت نفسه الى خطر كبير، وخسائر كبرى على الصعيدين البشري والمادي. فالعراق لم يعد افضل حالا مثلما كان يكرر بلير في خطاباته، والحرب على الارهاب في افغانستان باتت تنتقل من فشل الى آخر، ومعارضته لوقف فوري للعدوان الاسرائيلي على لبنان كانت القشة الاخيرة التي قصمت ظهر بعيره، وكشفت ان كل احاديثه السابقة عن تأييد الادارة الامريكية في حربيها في العراق وافغانستان من أجل دفعها لحل عادل على اساس الدولتين في الشرق الاوسط كانت مجرد امنيات ليس لها اساس صلب على ارض الواقع.

فبعد ثلاثة اعوام ونصف العام بات العراق يعيش حرباً اهلية طاحنة تودي بحياة ثلاثة الاف شخص شهرياً في المتوسط، حيث ينعدم الأمن، وتتفاقم الأزمات المعيشية للمواطنين، وتنعدم الخدمات الاساسية مثل الماء والكهرباء والبنزين، وترتفع معدلات البطالة، وتتحول الديمقراطية الوليدة الى نموذج سيئ يذكر بالسلبيات، ويجعل بعض العراقيين يترحم على ديكتاتورية وفرت الأمن للغالبية، وحافظت على وحدة البلد، وحفظت مكانته الاقليمية، واغلقت الابواب امام التدخلات الخارجية.

وحال افغانستان ليست افضل من حال العراق، فبعد خمس سنوات على احداث الحادي عشر من ايلول (سبتمبر) التي اطلقت الحرب على الارهاب، وتحول فيها بلير الى سفير للادارة الامريكية لحشد الحلفاء للمشاركة فيها، تعود الطالبان بقوة، وتنجح في اعادة تجميع قواها، والشيء نفسه يقال عن «القاعدة»، بينما تفشل حكومة كرزاي المنتخبة في السيطرة على البلاد وحفظ الأمن، وفرض هيبة الدولة، والقضاء على المافيات ولوردات الحرب التي عاثت في البلاد فسادا وارهابا.

توني بلير دخل تاريخ السياسة البريطانية من أوسع ابوابه كزعيم ذكي اعاد تجديد حزبه، وأوصله الى سدة الحكم مجددا في ثلاثة انتخابات، حصل فيها على اغلبية غير مسبوقة في مجلس العموم، ولكنه الآن يستعد للخروج من الباب الخلفي، تطارده اللعنات حتى من بعض المقربين منه ووزرائه السابقين، ناهيك عن معارضيه من نواب حزبه الذين يتزايد عددهم بشكل متسارع.

الرئيس بوش سيكون اكثر الخاسرين من جراء ما يتعرض له بلير من اهانات وصيحات غاضبة تطالبه بالاستقالة، فهو الحليف الوحيد الذي بقي في الحكم بعد خروج خوسيه ماريا ازنار الاسباني وسيلفيو برليسكوني الايطالي مهزومين في الانتخابات الاخيرة. فقد جاء اعلان بلير عن الاستقالة في وقت يعتبر الأكثر حراجة للرئيس الامريكي، حيث تتصاعد الانتقادات لسياساته بشقيها الداخلي والخارجي، بعد اكتشاف سجونه السرية، وسجل حكومته الطويل في التجسس على هواتف النواب، وممارسة التعذيب ضد المعتقلين، بما يتعارض مع الدستور والقوانين الامريكية.

انها لعنة العراق التي تطارد بوش وحلفاءه، وتدفع بهم من فشل الى آخر، وتنسف جميع انجازاتهم، وتحولهم من ابطال انتخبتهم شعوبهم كمصلحين ومثاليين ورجال حكم متميزين، الى قياديين فاشلين، الحقوا الخسائر والفضائح ببلادهم وسمعتها الدولية، بسبب تهورهم وخوضهم حروبا فاشلة ومكلفة ماديا وبشريا، ادت الى اتساع دائرة الارهاب بدلا من القضاء عليه.

في الذكرى الخامسة لـ 9/11: ما الذي تغيّر حقاً في واشنطن؟

صبحي حديدي *

■ في إحياء الذكرى الخامسة لهزّة 9/11، حين انهار البرجان الإعجازيان في نيويورك، وكاد مبنى البنتاغون الأسطوري أن يُدك، وارتدّ الوجدان الجمعي الأمريكي إلى فاجعة بيل هاربور، واهتزّ اليقين بأنّ أمريكا حصينة منيعة خلف أسوار المحيط الأطلسي... في هذه الذكرى كان من الطبيعي أن يغنّي كلٌ على ليلاه.

أتباع نظرية المؤامرة (حيث جهات في الإدارة الأمريكية أو الاستخبارات الإسرائيلية هي التي خططت ونفّذت، وليس القاعدة) لا يبدو أنهم تعبوا من نبش المزيد من «البراهين القاطعة» على صحّة الفرضية. ولا يخطئ أحد الظنّ بأنّ أتباع هذه النظرية لا يقيمون إلا في الشرق الأوسط أو هنا وهناك في بلدان العالم المسلم، كما تسير الصورة التنميطية، لأنّ العكس تماماً هو الصحيح: غالبيتهم العظمى في الولايات المتحدة ذاتها، وفي آخر استطلاع للرأي تبيّن أنّ واحداً من كلّ ثلاثة أمريكيين يؤمن بضلوع السلطات الأمريكية، على نحو او آخر، في ما جرى يوم 9/11.

وكما يفصّل جيم دوير، في صحيفة «نيويورك تايمز» قبل أيام، ثمة حركة جدية ملموسة تعتمد التظاهر والاعتصام وحملات التوعية، ويتحالف معها عشرات المعلّقين في صحف وإذاعات محلية، فضلاً عن أساتذة جامعات وأخصائيين في الهندسة المعمارية وتفجير المباني العملاقة والتصوير السينمائي. هذه الظاهرة، لأنها انقلبت هكذا في واقع الأمر، أجبرت الحكومة الأمريكية على إصدار سلسلة تقارير تدحض نظرية المؤامرة وتسند الرواية الرسمية، بينها تقرير علمي صادر عن «المعهد الوطني للمقاييس والتكنولوجيا»، هو الثاني من نوعه بعد التقرير الأوّل الذي صدر في الذكرى ذاتها قبل سنة، ويقع في 1000 صفحة!

وثمة حركة أخرى، أكثر رصانة وأوسع انتشاراً، تطلق على نفسها اسم «حقيقة 9/11» وينضوي في صفوفها مئات من المثقفين والكتّاب والعلماء والناشطين، وتهدف إلى دحض الرواية الرسمية ليس تطويراً لنظرية المؤامرة، بل تأسيساً لنظرية عالية المصداقية حول لجوء السلطات الأمريكية إلى طمس عشرات الحقائق الدامغة، عن سابق عمد وتصميم وتفادياً للحساب والمسؤولية من جانب أوّل، كما تقصّد البيت الأبيض استغلال الحدث لتمرير أجندات أمنية وعسكرية وسياسية مغامرة في الشرق الأوسط من جانب ثان. ومؤخراً، في مناسبة الذكرى الخامسة هذه، صدر كتاب لافت وبالغ الأهمية، بعنوان «9/11 والإمبراطورية الأمريكية: المثقفون يعترضون»، أشرف على تحريره دافيد راي غريفث وبيتر ديل سكوت، شاركت فيه نخبة من ألمع الأسماء في مختلف ميادين العلوم السياسية والاجتماعية والنفسية.

وثمة، في الصدد ذاته، حركة تأليف دائبة ناشطة تدور كالرحى، تقذف كلّ يوم ما هو في الغالب غثّ وسطحي وشعبوي، فتعيد إنتاج التنميطات ذاتها وتقلّبها ذات اليمين وذات الشمال دون أن تبدّل فيها قديماً أو تضيف إليها طارئاً. هذا لا ينفي وجود حفنة قليلة من الأعمال التي تشذّ عن القاعدة، بينها على سبيل الأمثلة هذه العناوين: دافيد راي غريفث: «بيرل هاربور الجديدة: أسئلة مقلقة حول إدارة بوش و9/11»، وكذلك: «العقيدة المسيحية والحقيقة وراء 9/11»؛ جيم مارس: «مهمّة من الداخل: إماطة اللثام عن مؤامرات 9/11»؛ مايكل رابرت: «عبور الروبيكون: إضمحلال الإمبراطورية الأمريكية ونهاية عصر النفط»؛ جورج همفري: «9/11: نهاية الوهم»؛ ماتياس بروبكرز: «المؤامرات، نظريات المؤامرة، وأسرار 9/11»؛ دون بول وجيم هوفمان: «الاستفاقة من كابوسنا: جرائم 01/9/11 في مدينة نيويورك»؛ نافذ مصدق أحمد: «الحرب على الحقيقة: 9/11، التضليل، وتشريح الإرهاب»؛ وبستر تاربلي: «9/11: إرهاب مركّب، صُنع في أمريكا»؛ وأخيراً باري زويكر: «أبراج الخديعة: كيف تسترت وسائل الإعلام على 9/11».

وبالطبع... ثمة الرئيس الأمريكي جورج بوش والنظرية الثابتة اليقينية الراسخة التي لا تتزحزح قيد أنملة عن معادلتها البسيطة المبسطة: 9/11 كانت جولة للشرّ (الذي قد يكون «فاشية إسلامية» أو «إسلامية فاشية» أو «إسلامية ـ فلسطينية»، أو إسلامية محضة خالصة بلا أوصاف ولا مواصفات...)، ضدّ الخير (الذي ينبغي أن يبدأ من ها هنا: من واشنطن، والقيَم الأمريكية، وطرائقنا في العيش، وديمقراطيتنا، وفلسفات سياستنا واجتماعنا واقتصادنا...)، ولا وسيلة لانتصار الخير على الشرّ إلا بما فعلنا ونفعل في أفغانستان والعراق (ثمّ فلسطين ولبنان بالإنابة، أو بالتفويض، ضمن الشراكة) من حرب على الإرهاب، سمة القرن الواحد والعشرين.

فعلى امتداد الأسبوع المنصرم ألقى بوش سلسلة خطابات أراد منها إحياء الذكرى الخامسة لـ 9/11، وتبيان استراتيجيته الأمنية والسياسية خلال السنوات المقبلة، فضلاً عن التسخين التمهيدي لحملات انتخابات الكونغرس النصفية. وفي خطابه أمام المحاربين القدماء في سولت ليك سيت (الذي قد يكون الأكثر دلالة لأنه كان مؤجلاً للغاية وعلى نحو غير اعتيادي)، اعتبر بوش أنّ الحرب على الإرهاب «أكثر من نزاع عسكري. إنها الصراع الايديولوجي الذي سيحدّد وجهة القرن الواحد والعشرين». وكان من المنتظَر أن يضيف: «بالرغم من اختلافاتها، فهذه المجموعات (الإرهابية، في نظره) تشكّل خطوطاً لحركة واحدة هي عبارة عن شبكة عالمية من المتشددين الذين يستخدمون الإرهاب لقتل مَن يعترض إيديولوجيتهم الشمولية الاستبدادية». ولم يكن منطقياً أن ينهي بوش خطاباً عقائدياً كهذا دون أن ينحني للدولة العبرية: «الذين فجروا مركز التجارة العالمي في نيويورك منذ خمس سنوات، متحدون مع مفجّري السيارات في بغداد، ومع مقاتلي حزب الله الذين يطلقون الصواريخ باتجاه إسرائيل»!

الأرجح أنّ الغرض من هذا الرحيل، أو بالأحرى: الترحيل، نحو الإيديولوجيا ليس التغطية على سوءات الإدارة الأمريكية وما يستشري سلباً ويتفاقم كابوسياً في جبهات حرب القرن الواحد والعشرين هذه (إذْ كيف يمكن حجب الشمس بغربال: في العراق الذي يقف كلّ يوم على شفير التفكك الوطني والحرب الأهلية المذهبية، وفي أفغانستان حيث يعود الطالبان والخشخاش وأمراء الحرب؟). غرض ملائم تماماً قد يكون العودة إلى المربّع البدئي الأوّل في المعادلة العتيقة إياها، عن الخير والشرّ والأسود والأبيض والذي ضدّنا لأنه ليس معنا، وتسعير المزيد من النيران التي تشدّد من رهاب الأمريكي، وتعصب عينيه عن حقائق ما جرى ويجري منذ 9/11/2001.

ونترك إلى مناسبة قادمة الحديث عن متغيّرات 9/11 ذات الطابع الأمريكي ـ الكوني (قوانين الحدّ من الحريات، المكارثية الجديدة، الغزو العسكري، أخلاقيات غوانتانامو وأبو غريب، المعتقلات الطائرة، السجون السرّية...)، ونتوقف بإيجاز عند مظهرين من بقاء السياسات الأمريكية على حالها، وانحطاطها أكثر فأكثر. المظهر الأوّل هو مصطلح «محور الشرّ» الشهير الذي اجترحه الرئيس الأمريكي في أعقاب 9/11، وكيف يتجلى اليوم في ما تشتغل عليه الإدارة الأمريكية بصدد إيران (وليس الملفّ النووي أوّل الاعتبارات وأخطرها، للإيضاح المفيد).

ولا يملك المرء إلا أن يستذكر، ثمّ يضع الاستذكار في سياقات راهنة، تلك الحرب الكلامية التي أشعلها رجالات البيت الأبيض ضدّ فرنسا وألمانيا وبلجيكا خصوصاً، وضدّ العديد من الدول الأوروبية الأخرى، بصدد المصطلح. ذلك لأنّ مسلسل التراشق اللفظي كان حاداً أحياناً، بين وزير الخارجية الأمريكي السابق كولن باول من جهة، وعدد من صانعي الدبلوماسية الأوروبية السابقين (وزير الخارجية الفرنسي هوبير فدرين، وزير الخارجية الألماني يوشكا فيشر، المفوّض الأوروبي للعلاقات الخارجية كريس باتن...) من جهة ثانية. ولم تكن تلك المناوشات اللفظية تعكس حال خلاف بين حلفاء ـ أصدقاء حول تعريف وتصنيف ومحاربة «محور الشرّ» فحسب، بل كانت تعكس أيضاً وأساساً حال القلق الأوروبي العميق إزاء تعطيل الحوار بين مختلف الكتّل التي تصنع العالم المعاصر، وانحدار آفاق هذا الحوار إلى درك أسفل خطير و... «تبسيطي» تماماً على حدّ تعبير الفرنسي فدرين.

في الآن ذاته كان الرئيس الأمريكي يواصل جولته الآسيوية، وكانت تتواصل معها سلسلة التناقضات التي اكتنفت تعاريفه وتصانيفه لـ «محور الشرّ» ذاك؛ والأسباب البعيدة والقريبة، الثابتة والمتغيّرة والمتغايرة، الملموسة أو الزائفة أو المفتقة، التي تضع الولايات المتحدة في حال استنفار ضدّ العراق وإيران وكوريا الشمالية. وبالطبع، لم يكن جديداً أن يتخبّط هذا الرئيس، وأن يقول مساء عكس ما قاله صباحاً، وأن يمحو باليد اليمنى ما دوّنته اليسرى. الجديد، الطريف أيضاً، كان التخبّط الماثل الذي أخذ يطبع تصريحات أعوان الرئيس القدماء المجرّبين (كولن باول، ديك شيني) إسوة بالجدد الهواة (كوندوليزا رايس بصفة خاصة) في تفسير عبارة الرئيس الأثيرة: لا يخطئنّ أحد في فهم نواياي... نوايا الحرب، غنيٌ عن القول!

آنذاك كنّا، نحن العرب على الأقلّ، شبه متأكدين من أنّ العراق على رأس لائحة «محور الشرّ»، وعلى رأس أهداف أيّة حملة عسكرية في سياق الحروب القادمة ضدّ «الدول العاصية»، وبرهنت الأيام على صواب تكهن لم يكن يحتاج إلى كثير حصافة. لكنّ بعض التردّد كان يهيمن على الملفّ الإيراني قليلاً، ويبدو واضحاً جلياً في ملفّ كوريا الشمالية، بدليل ما قاله كريس باتن تحديداً: لا مشكلة في الضغط على العراق (أي شنّ الحرب عليه، أو غزوه، وتغيير النظام بالقوّة)، وثمة إشكالية في الضغط على إيران (نابعة من اختلاف المعطيات، والأوراق الحاسمة التي تمسك بها إيران في المعادلة العراقية)، وهنالك مشكلة كبرى في إشعال أيّ فتيل بين الكوريتَين. في عبارة أخرى، كان هنالك تدرّج في أولويات المصلحة الأمريكية ـ الأوروبية، هو نفسه الوجه الثاني للتدرّج في خوض حرب ضدّ العراق، وتأجيل الأمر بالنسبة للإيرانيين (بذريعة إعطاء فرصة للإصلاحيين!)، وصرف النظر نهائياً عن إيقاظ الكوابيس والأشباح في منطقة جنوب آسيا.

المظهر الثاني، الذي يكمل الاشتغال المتغاير على مصطلح «محور الشرّ» ويتناغم مع مفرداته العملياتية إذا جاز القول، هو تصنيف الارهاب الكوني. وهذه الإدارة ما فتئت تعيد الامريكي، ومعه العالم بأسره في الواقع، إلى ذلك المربع البدئي الذي يصنّف أنساق الإرهاب، وأنساق الخير والشرّ استطراداً، من خلال التقرير السنوي الشهير الذي اعتادت وزارة الخارجية الأمريكية إصداره. والحال أنّ هذه التقارير، وما بعد 9/11 تحديداً، صارت لا تصف موصوفاً قائماً بقدر ما تخترع وحشاً متخيّلاً، فبات من نافل القول إنّ الأخصائيين الأمريكيين في شؤون الإرهاب والإرهابيين لم يتعلّموا شيئاً من الدروس الدامية لهزّة 9/11، سواء على نطاق الولايات المتحدة نفسها أم في مختلف بقاع العالم. أكثر من ذلك، وبمعزل عن التفاصيل «التقنية» والمعلومات حول حجم ونطاق عمل ومصادر تمويل هذه أو تلك من المنظمات التي يصنّفها التقرير في خانة الإرهاب، أخذت تلك التقارير تشكّل خطوة إلى الوراء بالقياس إلى ما سبق أن توصّلت إليه وزارة الخارجية الأمريكية ذاتها حول الموضوع ذاته في عهد إدارة بيل كلينتون.

ما هو أشدّ سوءاً، ولكنه ليس مبعث دهشة في حقيقة الأمر، أنّ تقريراً صدر مؤخراً عن البيت الأبيض بعنوان «الاستراتيجية القومية في محاربة الإرهاب»، يصبّ المزيد من الزيت على هذه النار المستعرة من حول حرب الإرهاب بوصفها حرب عقائد وإيديولوجيات، حيث لا ينشأ الإرهاب بتأثير من أيّ من هذه العوامل: الفقر والفاقة والبؤس، العداء لسياسات الولايات المتحدة هنا وهناك في العالم، النزاع الإسرائيلي ـ الفلسطيني، أو ردّ الفعل على حرب أمريكا ضدّ الإرهاب.

من أيّ سماء سوداء مدلهمة يهبط الإرهاب، إذاً؟

* كاتب وباحث سوري يقيم في باريس

قاموس الحرب الامريكي: من الارهاب الكوني الى الفاشية الاسلامية

د. نهى خلف *

■ إثر حوادث 11 ايلول (سبتمبر)2001، صدر في الولايات المتحدة في عام 2002، كتاب بعنوان كولاترال لانغواج والذي يمكن ترجمته اللغة الموازية. وقد قام بتحرير هذا الكتاب باحثان من الولايات المتحدة هما جون كولينز وروس غلوفر بمشاركة اثني عشر باحثاً آخر، جميعهم من المفكرين المناهضين للحروب الامريكية.

وقد اختار الباحثون هذا العنوان بناء على المصطلح الذي تستخدمه الادارة الامريكية لتصف الدمار الموازي أو الإضافي الناتج عن حروبها على انه كولاترال داماج أو بمعنى آخر انه دمار غير مقصود ومن تداعيات الحرب المؤسفة، وذلك من أجل تبرير استخدامها للقوة المفرطة في حروبها ضد عدوها الجديد أي الارهاب الكوني، حيث تبرر الولايات المتحدة كل الدمار الذي يصيب البنى التحتية وقتل المدنيين على انه مجرد دمار اضافي غير مقصود، (وعلى أساس هذا المصطلح يمكنهم أن يبرروا كل الدمار الذي الحقته القوات الاسرائيلية للبنى التحتية وللمدنيين في لبنان وفلسطين على أنه دمار إضافي غير مقصود).

وقد شمل هذا الكتاب 14 مقالا، عالج كل واحد منها مصطلحا معينا تستخدمه الادارة الامريكية في حربها ضد كل من تعتبرهم ارهابيين ومن بين هذه المصطلحات: الانتراكس، الضربة المضادة، الحضارة مقابل البربرية، الجبن، الشر، الحرية، الاصولية، الجهاد، العدالة، الاهداف العسكرية، الارهاب، الحرب الشاملة على الارهاب، الاتحاد، والمصالح الحيوية.

والمهم في هذا الكتاب هو التعريف الذي جاء في مقدمة الكتاب لمصطلح اللغة الموازية، أي حسب قولهم ان اللغة عبارة عن منظمة ارهابية ويشرحون ان هدف الكتاب هو فضح استبداد اللهجة السياسية المستخدمة لتبرير الحرب الأمريكية الجديدة والتي تمتد عبر العالم ولا تحترم الحدود القومية معتبرة ان كل الاماكن عبارة عن نفس المكان الذي تقضي فيه ممارسات الحرب على حلم حقوق الإنسان، وذلك بدءا بالحرب على أفغانستان التي يعتبرها الكتاب من أفقر بلدان العالم.

ويضيف الباحثون ان تسمية هذا الكتاب اللغة الموازية مبنية على أساس أن اللغة تشكل نمط حياتنا وتداعيات اللغة في مرحلة الحرب لها آثار مذهلة، ولذلك يمكن اعتبارها منظمة ارهابية تصيب المدنيين بهدف تحقيق أهداف سياسية. فيصبح كل البشر أهدافا مدنية تصيبهم اللغة بالخوف والرعب، حيث انها تنتج اثارا ذات أبعاد نفسية تفوق بكثير المعنى الأصلي للمصطلحات المستخدمة.

ويعتبر الباحثون ان المشروع الاساسي الامريكي الكامن خلف استخدام لغة سياسية معينة هو التوصل الى إجماع ودعم من قبل الشعوب لتلك السياسات، كما يوضحون انه في حال تستخدم دولة ما المصطلحات المناسبة يمكنها عبر ذلك أن تقنع شعوبها بالقيام بأسوأ الجرائم. ويبينون كيف شهد القرن العشرون عملية انتاج متطورة للمصطلحات السياسية في الولايات المتحدة، وكيف تم استخدام هذه الادوات اللغوية (التي يسميها البعض أسلحة لغوية) لفبركة اجماع واسع النطاق للرأي العام في المجتمع، كما يتم تحويل وتطوير تلك الأدوات اللغوية بشكل مستمر ودائم حسب الحاجة.

ولا يمكننا في هذا الصدد ان نشير بالتفصيل الى كل التفسيرات العلمية للمصطلحات الامريكية التي وردت في هذا الكتاب القيم وتأثيرها على الشعب الامريكي حيث قد يصل بهم الحال الى إقناع الكثير بأنهم يعملون من أجل السلام والديمقراطية بينما يحرضون على الحرب.

ان هذا الكتاب قد نشر في عام 2002 ونحن الان في عام 2006، وقد حدث ما حدث من دمار مقصود وغير مقصود في العراق ولبنان وفلسطين. وقد حدث ما حدث من مقاومة شعبية ووطنية ضد المخططات الأمريكية والإسرائيلية. وقد نجحت الولايات المتحدة وأعوانها في أساليب الخداع في بعض الأحيان وفشلت في احيان أخرى ولكنها تحاول دائما أن تبحث عن مصطلحات جديدة تهدف عبرها التوصل الى اجماع، ليس فقط داخل المجتمع الامريكي أو الاسرائيلي، بل الى إجماع ودعم على الصعيد الكوني. وقد اصبح، في رأينا، الحصول على الإجماع داخل المجتمع الامريكي مسألة ثانوية بالنسبة للإدارة الأمريكية التي بدأت تتخلص شيئا فشيئاً من المكتسبات الديمقراطية على الصعيد الداخلي حيث طور المحافظون الجدد في تلك الإدارة وسائل قمع جديدة للمراقبة والملاحقة.

وقد بقي، إذن، الشاغل الأساسي للادارة الامريكية خلال كل هذه الفترة الممتدة منذ 11 ايلول (سبتمبر) 2001 وحتى ايلول (سبتمبر) 2006، الحصول على إجماع عالمي لحروبها ومخططاتها عبر التركيز بشكل خاص على إخضاع الامم المتحدة لتصبح أداة تنفيذية بين يديها من جهة، والعمل على إخضاع اوروبا من جهة اخرى عبر ادخالها في منظومتها الفكرية وفرض منظمة اللغة الارهابية عليها بهدف التوصل على إجماع ودعم أوروبي، مستغلة انشغال الدول الأوروبية الكبرى في موضوع توطيد الوحدة الأوروبية ودستورها ومعتمدة على حليفها البريطاني الانغلوساكسوني لتمرير لغتها على الاوروبيين.

ونتيجة الفشل الذي حظيت به ادارة بوش في حربها الكونية ضد الارهاب أكان ذلك في العراق أو بشكل صارخ في الحرب التي خاضتها اسرائيل ضد حزب الله في لبنان، بدأت الولايات المتحدة البحث عن مصطلح لغوي جديد لتهيئة أجواء الحرب ضد ايران دون فقدانها الدعم الدولي والاوروبي بشكل خاص. وعلى هذا الأساس بدأ مصطلح الفاشية الاسلامية يظهر ويردد بشكل مجدد في قاموس المحافظين الجدد حيث لم يكن واردا في قاموسهم في عام 2002 ومن الواضح ان الهدف من اختيارهم لهذا المصطلح هو تخويف ثم توريط اوروبا في الحربين: اللغوية في المرحلة الأولى والعسكرية في المرحلة الثانية. وذلك لأن أوروبا هي التي عانت أكثر من غيرها من الفاشية في الحرب العالمية الثانية.

ان استخدام هذا المصطلح القديم الفاشية وتطويره الى الفاشية الاسلامية، يأتي كمقدمة لتبرير الحروب القادمة والمرجحة أن تشن على ايران.

وقد بين مقال للصحافي جيم لوب وهو من الباحثين المناهضين للحرب بعنوان الفاشية: الاطار المفبرك في صحافة المحافظين الجدد بتاريخ 2 ايلول (سبتمبر) 2006، ان الصحافة اليمينية والتي يسيطر عليها المحافظون الجدد واليمين المسيحي الصهيوني قد بدأت بترداد ذلك المصطلح بشكل مكثف في الأشهر القليلة الماضية.

ففي رأيه ان الحملة العدوانية الجديدة التي تديرها إدارة بوش قد بدأت تعرف أعداء الولايات المتحدة على أنهم فاشيون من جهة وتسمي نقاد الحرب المهدئين من جهة أخرى استنادا الى مصطلح التهدئة وذلك في محاولة لخلق أجواء نفسية مشابهة للأجواء السائدة في الثلاثينات من القرن العشرين حيث استخدمت كلمة التهدئة بشكل ساخر لوصف محاولات اللورد تشامبرلين البريطاني الفاشلة لتفادي الحرب مع ألمانيا قبل احتلالها لبولونيا.

ومن الشبكات الإعلامية الاساسية التي بدأت بترويج مصطلح الفاشية شبكة فوكس نيوز ومجلتها الويكلي ستاندارد التي يمتلكها روبرت مردوك، وجريدة الواشنطن تايمز الخاصة بالكنيسة التوحيدية التي يقودها القس سان ميونغ مون وجريدة النيو يورك سان التابعة للمحافظين الجدد.

كما ان مجلتين يمينيتين اخريين وهما الناشونال ريفيو والامريكان سبكتيتور بدأتا أيضا بترويج مصطلحات النازية والفاشية والتهدئة بشكل مفرط لوصف ايران ورئيسها أحمدي نجاد.

فبعد ان استخدمت الواشنطن تايمز مصطلح الفاشية في خمسة وتسعين مقالا في العام الماضي وخاصة في الثلاثة أشهر الاخيرة، وبعد ان استخدمت الناشونال ريفيو نفس المصطلح ستا وستين مرة والامريكان سبكتيتور ثماني واربعين مرة، جاء دور بوش نفسه الذي استخدم هذا التعبير منذ اسبوعين ليشمل تعريفه المبهم للفاشية كل شيء بدءا بتنظيم القاعدة وحماس ومرورا بحزب الله وايران وسورية. ثم جاء منذ اسبوع دور دونالد رامسفلد وزير الدفاع الذي تحدث بشكل أدق عن خطر تواجهه الولايات المتحدة وهو نوع جديد من الفاشية، مضيفا انه يجب الاستفادة من دروس الماضي وهي انه لا يمكن التوصل الى تهدئة مع الفاشيين.

وهكذا تحول الخطر الاساسي الذي يواجه العالم في المنظومة الفكرية الأمريكية من الخطر الشيوعي كما كان عليه الحال قبل انهيار الاتحاد السوفييتي، الى خطر الارهاب العالمي بعد 11 سبتمبر 2001 ليصبح اليوم الخطر الفاشي حيث يعود الحال الى ما كان عليه في الثلاثينات من القرن العشرين. فهل يمكن اعتبار ذلك تطورا أم تخلفا؟

والسؤال المطروح اليوم، كما كان مطروحا قبل دخول أمريكا في حربها ضد العراق هو حول شكل وتوقيت الحرب المستقبلية التي ستغامر بها أمريكا ضد الفاشية الوهمية بعد فشلها في حربها ضد الارهاب، والسؤال الأهم والأخطر من ذلك هو: هل ستتمكن من خلق اجماع عالمي وأممي يسندها في هذه المغامرة القادمة؟

* باحثة فلسطينية تقيم في تونس

ليلة ذبح السودان

د. عبدالوهاب الافندي

(1)

ربما يستغرب كثير من غير السودانيين حجم الشعور بالصدمة الذي عبرت عنه كثير من الأوساط السودانية إزاء حادث خطف واغتيال الصحافي السوداني محمد طه محمد أحمد ليلة الثلاثاء المنصرمة. فالسودان عند الكثيرين مسرح لكثير من ألوان العنف والحروب الأهلية، وحتى التطهير العرقي والإبادة الجماعية. والسودان كذلك عند كثير من منظمات حقوق الإنسان والجهات الأممية مسرح لانتهاكات واسعة لحقوق الإنسان، بما فيها حقوق الصحافيين، حتى كان من بين حفنة من الدول عينت لها الأمم المتحدة في منتصف التسعينات مقرراً خاصاً لحقوق الإنسان. فماذا يزيد اغتيال صحافي فرد إلى كل هذا؟

(2)

المصيبة السودانية قد تعتبر أيضاً حدثاً عرضياً مقارنة بما يشهده العراق حالياً من ذبح بالجملة لا يوفر صحافياً ولاغيره، أو ما شهده لبنان (الذي شهد بالمناسبة أول حادث اغتيال لصحافي سوداني دبره نظام النميري في عام 1970) من استهداف منهجي للصحافيين، وما شهدته قبل ذلك الجزائر ودول عربية أخرى.

(3)

ولكن لكي نفهم حجم الزلزال الذي يمثله حادث الاغتيال فلا بد أن نقدر ليس فقط غربة حوادث الاغتيال والإرهاب عن المشهد الاجتماعي والسياسي السوداني (رغم اتهامات أمريكا وغيرها للبلد بدعم الإرهاب) وفشلها في أن تجد لها تربة خصبة على الأرض السودانية، بل فوق ذلك علينا أن نقدر خصائص أخرى للواقع السوداني. ولعل أحد أهم هذه الخصائص هو اعتماد النهج الحضاري في إدارة الصراعات والتعايش مع الخلاف.

(4)

بعض تجليات هذا النهج (مثل التعامل الحضاري بل والودي أحياناً بين ممثلي الأطراف المتحاربة في جلسات المفاوضات) أدهش كثيراً من المراقبين وجعلهم يتساءلون عن دواعي الصراع أصلاً. وقد صمد هذا النهج الحضاري في التعامل لهجمات شرسة من «ثوار» كثيرين من اليسار واليمين، وكان الإسلاميون للأسف أكثر من أثخن في هذا النسيج تمزيقاً.

(5)

بعض المعارضين سارع إلى اتهام الحكومة خصوصاً والإسلاميين عموماً بالمسؤولية غير المباشرة عن مقتل محمد طه ناشر ورئيس تحرير صحيفة «الوفاق» اليومية. حركة «حق» (المنشقة على الحزب الشيوعي السوداني) قالت إن مقتل محمد طه يمثل «وطأة المشروع الحضاري لسلطة الإنقاذ ومهاويسها الأصوليين، في واحدة من أكثر لحظاته صفاءً ووضوحاً وكثافة». وأضافت «لقد شحذت نصال السكاكين والخناجر الذي ذبحت محمد طه، فكرياً، على أحجار السلفية والأصولية والتطرف والغلو واحتكار الحقيقة والدين وإلغاء الآخر جملة وتفصيلاً ونفي حقه في الحياة التي روجتها الحركة الإسلامية، وحركياً وفعلياً، على سياسات الإنقاذ التي استجلبت الإرهابيين وغلاة المتشددين من كل أصقاع الأرض ووفرت لهم الملاذ ومنحتهم الحماية والجنسية».

(6)

هذا الاتهام يفترض ما يرجحه الكثيرون من أن قتلة محمد طه هم من السلفيين المتشددين الذي شنوا حملة عنيفة عليه في العام الماضي حين نشرت صحيفته مقالة تقدح في شخص الرسول صلى الله عليه وسلم ونسبه. وقد حوكم محمد طه على خلفية تلك المقالة وصدر ضده حكم بالغرامة وإيقاف الصحيفة وقد اعتذر عن نشر المقالة علناً وقام شخصياً بالرد على ما جاء فيها من دعاوى. ولكن منتقديه من السلفيين لم يرضوا بهذا ودأبوا على إهدار دمه. وينتسب محمد طه إلى الإسلاميين وهو من أنصار الحكومة. وقد تعرضت مكاتب صحيفته أيضاً لهجوم عنيف من قبل جهات قبلية تناولتها الصحيفة بنقد.

(7)

الحكومة مسؤولة جزئياً على الأقل عن المناخ الذي أصبح فيه ممكناً لزوار الليل من الجهات الأمنية أن يطرقوا بيوت المواطنين ويقتادوهم إلى أماكن مجهولة، وعلى أقل تقدير عن عدم توفير الأمن لمواطنيها. ولكن الوقع المزلزل للحادث يأتي من كونه عدواناً على المنهج الحضاري في التعايش والإحساس بالأمن الذي ظل يسود المجتمع السوداني، على الأقل في المركز والعاصمة رغم ما أصاب أطراف البلاد من نوازل.

(8)

الذي نرجوه أن يكون الحادث ظاهرة معزولة وهامشية مثل الهجمات الإرهابية التي طالت المصلين في أعوام سابقة، وتم القبض على المنظمات التي كانت وراءها وتصفيتها. والذي نرجوه كذلك أن تبدأ العملية الطويلة الضرورية لإعادة بناء النسيج الحضاري السوداني عبر نشر الديمقراطية وتصفية التنظيمات المسلحة من معارضة وموالية والبعد عن التشنج والتطرف إسلامياً كان أو علمانياً، وتوافق كل السودانيين على احترام القانون والقيم السودانية الأصيلة في التعايش مع الاختلاف. وإلا فإننا مقبلون على ليل مظلم طويل.

القدس العربي

يومية سياسية مستقلة

تطبع في لندن ونيويورك وفرانكفورت وتوزع في جميع انحاء العالم

الاشت